## هارون حسن

إشارة على الطريق

رحلة أخرى ابتديتها في طريقي لقضاء عُطلة نهاية الأسبوع مع العائلة، الصباح أوشك على الظهور، سيارتنا مسرعة، الطريق شبه خالٍ من مشاركي الطريق، أتخيل نفسي مكان السائق، سوف أصير أكثر تهورًا في قيادة السيارة، أتذكر الآن وأنا أكتب مراحلي الأولى في تعلم القيادة، حيث اقتلعت شجرتين من أمام منزلنا، أحدهما بمقدمة السيارة، والشجرة الأخرى أثناء رجوعي للخلف، ولكني أسندتها بحجر ولم يكتشف ذلك إلا بعدها بفترة قصيرة، وقتها انفعلت أمامه، من فعل هذا بشجرتنا؟! عوضك الله يا أبي عناء اهتمامك بها. ونسيَ ذلك، وزرع أخرى مكانها، ولم يقل اهتمامه بها عن الأخرى، كأنها طفلته التي لا تشيخ.....

قصيرة هي الحياة، كما تغنيها السيدة فيروز "ذاكر قدّي قلتلّي هالعمر إنو قصير"

الليل والطريق أصدقاء أوفياء، القمر صديق وفي للشمس، برغم أنهما لم يتقابلا لكنهما أوفياء، ينتظران بعضهما يوميًا للقاء، قد تصادفك مرة أو مرتين في الحياة حتى تراهما يودعان بعضهما عند مساء أو صباح، رأيت اليوم القمر ينتظر الشمس حتى الساعة السادسة صباحًا، ظللت أراقبه طول الطريق، ساعة يختفي بين السُحب وأخرى يظهر في الجهة الأخرى من الطريق، انتظر كثيرًا، حتى الصباح لكي يودعها.

في الطريق إشارات إرشادية كثيرة، منها "على بُعد (٥٠٠) متر محطة تحصيل رسوم، وعلى بعد(٢٠٠) متر نقطة تفتيش"، وكذلك "ممنوع الوقوف علي جانبي الطريق" وهكذا. حتى الآن عددها تخطى (٦٠) من جُمل إرشادية، وعلامات، هذا هو الطريق. الحياة أشبه بذلك

الطريق مع خلوها من كل هذه الإرشادات بهذا الظهور والترتيب الآدمي، قد تراها وقد لا ترها، وقد تراها وتتجاهلها، وقد يبعث الله لك من يرشدك إليها. وقد يرزقك الله بهذه الموهبة في رسم الطريق للآخرين، وقد تكون أنت الطريق ذاته، والسبيل لعبور الآخرين.

مررنا على محطة وقود، أوشك وقود السيارة على الانتهاء، يعرف ذلك سائقو الطريق بالممارسة، وكذلك يعرفون أي محطات الوقود أفضل من الأخرى. نحنُ أشبه بهذه السيارات أو هي التي تشبهنا حتى أكون أكثر دقة، نحتاج دومًا للوقود، وقود يعطينا الطاقة لإكمال الرحلة، وهبنا الله الطريق إليه، وأعطانا الوقود وعرفنا المحطات، لكنه لم يُعطنا طريقنا في هذه الحياة، أعطانا مواد البناء، لكنه لم يخبرناالطريق.

جعل إعادة بناء هذه الأرض اختبارنا المصيري، وعلى كل شخص الاجتهاد في ما أعطاه الله، لم يعطنا الله كل شيء، لكنه أعطانا ما يوصلنا لأول الطريق. لكي ترى بدايات هذا الطريق، ليس عليك إلا أن تُغلق عينيك، وتُبصر بعينك الثالثة. فسلامًا على من فهم الرسالة، من وقف في منتصف لوحة الشطرنج، وتفهم قوانين اللعب، وأن الله لو شاء لأصلحها بدونه، لكنه يريده هو ليس فقط أن يلعب، ولكن لكي ينتصر.

على يمين الطريق، هناك عند آخر شجرة أستطيع أن أراها، وأرض تملؤها الخضرة والنور، يظهر اللون البرتقالي والأرجواني مختلطًا بخطوط بيضاء أفقية للسُحب، مبشرًا بقدوم الشمس، وهنا في أقصى الشمال، فوق سياراتنا ينتظر القمر، لكي يُلوّحا لبعضهما، مثل ما يفعلان منذ آلاف السنين.

اقترضت من الطريق كثيرًا، ولايسألني متى أعُيد ما اقترضت. اقترضت الصبر فصرت أكثر صبرًا على الوصول. اقترضت الاستمتاع بالقراءة، شاهدت أبطال الرويات بجانبي كثيرًا، أطفالًا، عبيدًا، رجالًا ونساء، سلاطين، معلّمين وتلاميذ، شاهدت ذات مرة المُعلّم "سنان" رئيس المعماريّين الملكيّ بإسطنبول وتلميذه "جهان"، وفيله الأبيض "شوتا" ومئات العمال يشيدون قبة أحد المساجد الدائرية التي تخطف الأنظار ومأذنة السبع. تذكرت قول التلميذ لمُعلمه "تزور بعض المدن لأنكّ تريد أن تزورها، وتزور أخرى لأنّها تُريدك أن تزورها" شاهدت ذات مرة "شمس التبريزي" يخرج من إحدى تكيات الدراويش على الطريق، وددت لو أن أوقف السائق وأرجع للقائه، أستأذنه أن أقضي معه هذا اليوم، لربما لا أراه مجددًا.

اقترضت من الطريق الحكمة، والصداقة، وحكايات الغرباء، الطريق صديق وفيّ لمن يُصاحبه، ووحش شرس لمن يتعالى عليه، ومستمع جيد لمن يحادثه، وكاتم أسرار لمن يُلقي عليه سرّه.

أوشك الطريق على الانتهاء، دارت عجلات السيارة آلاف الدورات حتى أوصلتنا إلى هنا، ودارت أعيننا مع الطريق، وحفظت آلاف الصور والمشاهد التي تبقى معنا إلى أن يشاء الله، نخزنها هنا في أعمق مكان داخل عقولنا وقلوبنا على حائط الصور والذكريات، الذي نقف أمامه كلما اضطررنا لذلك، نشاهد أفضل ما أخذته أعيننا من مشاهد لنا ولمن أحببناهم.

انتهى الطريق، وبقي القليل، أحب أن أقضيه مع الشروق، وآخر ما سمعته اليوم للسيدة "فيروز"

"في أمل إيه في أمل، أوقات بيطلع من ملل".